الأسس النفسية والاجتماعية لنظريات الإعلام بين البيئة الغربية والتطبيقات الجزائرية

- مقاربة تحليلية لمعالم المفاهيم وتقرير لأزمة السياق-

أ. بن سباع صليحة.- جامعة قسنطينة 2-*الجزائر*

أ. حورية بولعويدات.- جامعة جيجل-*الجزائر*

مقدمة:

يعتبر القرن العشرين فترة هامة في حياة الشعوب الإنسانية والمجتمعات الحديثة، إذ شهدت هذه الأخيرة تطورا سريعا في عدة مجالات: الاقتصادية والتربوية والسياسية والاجتماعية والثقافية...ويرجع هذا إلى التقدم الذي شهدته وسائل الإعلام والاتصال، والتي اهتم بدراسة مكوناتها وآثارها جملة من الباحثين وانطلاقا من هذه الدراسات صيغت جملة من النظريات، إلا أن الملاحظ على هذه الأخيرة أن جلها ارتكزت بناءا على المفاهيم والمقاربات التي تتفق مع طبيعة الشخصية الغربية والمجتمع الغربي، وهذه النظريات وجدت لمجتمع غير مجتمعنا، فنحن نمتلك الإطار المرجعي الخاص بنا والنابع من ثقافتنا وهويتنا الإسلامية العربية، فالنقل عن الغرب لابد أن يراعي القواعد الكلية في عقول الأفراد، وأن عدم الإدراك يفشل كل مشاريع محاكاة النموذج الأوروبي، فحتى نكون فاعلين علينا العمل وفق نظرية نابعة من أصولنا الإسلامية، تجسد مفهوم القيم، ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول معرفة مدى جدوى أو فعالية تطبيق نظريات الإعلام الغربية في الدراسات الجزائرية ؟

أولا : تشخيص الواقع الاجتماعي .

لقد قام عالم الاجتماع الجزائري **مالك بن نبي** بتشخيص دقيق لواقع المجتمع الجزائري، وهو يؤكد أنه يعيش العديد من الآفات أو كما وصفها بالمرض الذي ينخر الجسد الاجتماعي، الذي ينبغي أن نصف الدواء له في أقرب وقت مكن من أجل خروج المجتمع من الحالة المعطّلة إلى الحالة الفاعلة، وهناك ثلاث مشكلات يعاني منها المجتمع الإسلامي بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة وهي:

1- **مشكلة الحضارة**

ويرى أن المشكلة التي يعاني منها العالم الإسلامي هي مشكلة الإنسان قبل أي شيء آخر، فهو الذي فقد همّته الحضارية، فالإنسان يؤثّر في مجرى التاريخ من خلال ثلاثة عناصر أساسية هي: فكره، عمله وماله، ويبقى الإنسان (بإرادته) العنصر الفاعل في المعادلة، وانطلق في تشخيصه للواقع الاجتماعي وخصوصا الجزائري من الآية القرآنية التالية :" **إن الله لا يُغَيِّر ما بِقَومٍ حتَّى يُغَيِروا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** . " [1]

والملاحظ أن تأنيب الضمير مات في هذا المجتمع، وساعده أخطر شلل هو الشلل الأخلاقي، فالمسلم لا يحاول تعديل سلوكه وإصلاح نفسه فهو كامل كمال العقم، أو كمال الموت أو العدم،

وبذلك تختل حركة التقدم النفسي في الفرد والمجتمع، فإذا الذين اطمأنوا لفقرهم الروحي، ولنقصهم النفسي يصبحون قدوة في الخلق، وفي مجتمع تقود فيه الحقيقة إلى العدم .

فالمجتمع الإسلامي والجزائري خصوصا عليه أن يستعيد همته الحضارية من خلال إعادة التدبر في القرآن الكريم وكأنه يقرأه لأول مرّة، إذ يقول:"فنحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية وتوجيهها، وأول ما يصادفنا في هذا السبيل هو تنظيم تعليم القرآن بحيث يوحي من جديد إلى الضمير المسلم الحقيقة القرآنية كما لو كانت جديدة، نازلة من فورها من السماء على الضمير، وثاني ما يصادفنا هو أنه يجب تحديد رسالة المسلم الجديد في العالم، فبهذا يستطيع المسلم منذ البداية أن يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، حتى ولو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى ومبادئه،كما أنه يستطيع أن يواجه–رغم فقره أو ثرائه–مسؤولياته مهما يكن قدر الظروف الخارجية الأخلاقية أو المادية" .[2]

فإنسان ما بعد الموحدين كما يصفه مالك بن نبي قد فقد همته بسبب فقدانه للمبدأ الديني داخله، وبالتالي انهارت شبكة العلاقات الاجتماعية لأنه فقد صلته بخالقه وكذلك فقد شخصه وعلاقته بالآخرين، وبتعبير آخر إن المسألة هنا أن نوضح للقارئ كيف يتاح (للفكرة الدينية) أن تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة، بالتالي كيف يتاح لهذه الفكرة ذاتها أن تمدنا بتفسير عقلي لدور إحدى الديانات في توجيه التاريخ" [3].

والعرب كما يقول ابن خلدون لن يحصل لهم الملك إلا بالفكرة الدينية وهذه عملية يقينية، ومن الضروري التنبيه لهذا الأمر ،"...فالزواج مثلا يعد علاقة اجتماعية جوهرية، وهو من الناجية التاريخية أول عقد في شبكة العلاقات الاجتماعية "[4]، والعلاقة بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان .

2–مشكلة الثقافة:

والسؤال الذي طرحه أستاذنا مالك بن نبي في كتابه –مجالس دمشق –ما الثقافة ؟

إن كلمة الثقافة نفسها وردت في مُقَدَمة ابن خلدون مرتين أو ثلاثا في فصول موزعة في المُقَدَمة دون أن يكون لمدلول الكلمة ضبطاً يحمل إلينا معنى الثقافة كما نحاول أن ندركه اليوم، فكلمة الثقافة تبدو لنا في مصطلح ابن خلدون هي مرادفة لما يسميه "الصناعة "، صناعة النحو، صناعة الفقه،صناعة الطب...الخ، فكل فن أو تقنية كما نسميها اليوم يسميه ابن خلدون صناعة، وأحياناً يجمع مجموعة الصناعات (أي ما نسميه اليوم تكنولوجيا) بكلمة ثقافة، أما مدلولها اليوم اتسع أكثر من ذلك بكثير، لقد بقيت الكلمة في الحقيقة نادرة الاستعمال في اللغة العربية كما نعتقد، وقد نعثر عليها في لسان العرب إنما مجرد فعل (ثقَّف–يثقِّف:أي قوَّم–يقوِّم)، وهي بهذا المعنى تُقَرِبنا من مدلول الثقافة بمعناه اليوم[5].

والواقع أن فكرة " ثقافة "ثمرة من ثمار عصر النهضة، فهي فكرة حديثة من عصر النهضة إذ يقول:"فالكلمة إذن جديدة أي أنها وجدت بطريقة التوليد، والغريب أن الكاتب الذي

صاغها – وربما كان ذلك في مستهل هذا القرن– قد اختارها من بين عدد من الأصول اللغوية من مثل :علم –أدب–فهم–أدرك–ثقف، تلك الكلمات التي تدل على العمل أو العلاقة المعرفية، ومعنى هذا أنه اختار الكلمة التي تدل صورها على طابع الروح الجاهلية، وبوسعنا أن نقول: إن الفعل " ثقف "أصل لغوي يتصل تاريخه بلغة ما قبل الإسلام ..ولكن يبدو لنا أن كلمة (ثقافة) التي كان من حظها أن نختار لهذا المعنى،لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين، وهذا هو ما يفسر لنا أنها بحاجة دائما إلى كلمة أجنبية ..أو بعبارة أخرى إنها تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمةculture..، ولقد رحّب مجال البحث الاجتماعي في القرن التاسع عشر بتأثير التوسع الاستعماري ذاته، ورحّب معه مفهوم (الثقافة)الذي كان حتى ذلك الحين حبيسا في نزعات فردية أوروبية، بمبدأ "الإنسانيات الإغريقية اللاتينية "، اتسع هذا المفهوم حتى ضمّ مجالاً جغرافيا أوسع ومعنى اجتماعي أشمل، إلى أن ظفر بدراسات **(ليفيبريل)**عن ثقافات المجتمعات البدائية[6].

وإذا كانت المدرسة الغربية الرأسمالية تعرّف الثقافة بأنها **فلسفة الإنسان،** والمدرسة الماركسية تعرّف الثقافة بأنها **فلسفة المجتمع،** فإن مالك بن نبي يجمع بين النظرتين ويقرر بأن الثقافة تشمل فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع، لذلك نجده يقول أن: الثقافة إذن تعرف بصفة عملية على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"، وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها[7].

وبهذا التعريف فإن مالك بن نبي يَجْمَعٌ تعريفه للثقافة في موضوع علم الاجتماع، وتعريفه الذي حدده ابن خلدون في مصطلح " **العمران البشري والاجتماع الإنساني** ".

وتعتبر نظرية مالك بن نبي في الثقافة هي محور ولبّ نظريته في فلسفة التاريخ والحضارة على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة أزمة ثقافية، وأن نجاح أي حركة نهوض حضاري ترتبط بمشروعها الثقافي[8].

فالثقافة هي روح الحضارة والإقلاع الحضاري مرتبط بمعادلة تقدم الواجبات على الحقوق بل وتفوقها عليها، فكلما كان لدى المجتمع فائض في أداء الواجبات كلما انعكس ذلك على تلبية حقوقه بشكل أفضل وأشمل[9].

إن النظرة الشمولية التكاملية الوظيفية في دراسته للظواهر الاجتماعية، مستثمرا في ذلك كل الجوانب المعرفية في رصد الظواهر وتحليلها وتفسيرها وصولا إلى معرفة الأسباب والعوامل المستقلة والتابعة المؤثرة فيها، ووعي آلية السنن والقوانين المنشئة لها والفاعلة فيها .[10]

ويؤكد أن **الثقافة العملية** هي الحل الوحيد لإعادة **صياغة المفاهيم في المنظومة الفكرية والقيمية** داخل المجتمع، وقبل ذلك يجب القيام بعملية التنقية والانتقاء قائلا:" وأنه يجب بادئ

الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتاله، ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة"[11].

غير أن مشكلة الثقافة عندنا حسب مالك بن نبي، ليست مشكلة فهم وتفسير لنموذج ثقافي موجود في الواقع بقدر ما هي مشكلة إيجاد وترقية لهذا النموذج لأنه نموذج منشود، ومعنى ذلك أننا "في العالم العربي والإسلامي ليست مشكلتها منحصرة في محاولة فهم الثقافة على أساس أنها واقع موجود نريد التعامل معه من أجل التكيّف النفسي الاجتماعي، إن المشكلة عندنا تطرح على شكل مشروع نطمح إلى تحقيقه بصورة عملية ."[12]

فنحن نحتاج إلى الثقافة العملية لأنها المخرج الأساسي، وبها نستطيع أن نحقق نوعاً من التوازن على مستوى عالم الأفكار والأشياء والأشخاص، وحسب رأيه نحتاج إلى نوع من **التنحية والانتقاء** لأن المشروع الثقافي يحتاج إلى **عملية ترصيص فكري وعملي**، وعلى الدولة أن تتخذ من عناصر الثقافة العملية دستورا لها وحددها في أربع مبادئ هي:

1. الدستور الخلقي.
2. الذوق الجمالي.
3. المنطق العملي .
4. الصناعة بتعبير ابن خلدون .

والثقافة هي نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، "ونخلص من ذلك إلى ضرورة تحديد الأوضاع بطريقتين: الأولى سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي، الثانية إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل"[13]. إذن فالثقافة مثل القوانين الاجتماعية لابد من أن تدرس من خلال عاملي الزمن، والمكان لذلك فهي تختلف من مكان إلى مكان وتخضع لعامل الزمن باستمرار.

فالثقافة في مهمتها التاريخية تقوم بالنسبة إلى الحضارة بوظيفة الدم بالنسبة إلى الكائن الحي، فالدم ينقل الكريات البيضاء والحمراء التي تصون الحرية والتوازن في الكائن، وتكون جهاز مقاومته الذاتية فالثقافة تنقل أفكار الجمهور الشعبية، وأفكار القادة الفنية، وهذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة، فهي تدين لهما بدافعيتهما وبمقدرتهما الخلاقة .

3-مشكلة المفهومية :

إن مشكلة المفهومية تثار على المستوى الوطني داخل كل بلاد فرضت شروطها الخاصة ضمن طور معين من أطوار تاريخها، أنماطا من العمل الجماعي، نعني حين يطرد تأثير الشروط الفنية لنشاط مشترك على مساحة جغرافية فسيحة بما فيه الكفاية، ومخططة في قليل أو كثير، ودراسة هذا النشاط ترجع بنا على أي وجه إلى دراسة المقومات التي تقوم عليها تركيبته.[14]

وفي علاج المجتمع، هناك أيضا مقياسين، على المعالج أن يأخذهما بعين الاعتبار: التشخيص والعلاج، اكتشاف المرض وطريقة مداواته، وبمعنى أكثر دقة علينا معرفة الداء ثم تحديد علاجه تحديدا دقيقا.

إذن فمشكلة الباعث المعلِّل داخله بالضرورة ضمن مشكلة النشاط الفردي أو الجماعي، ففي إمكان النشاط أن يصنع المجتمع أو أن يقوم بتقويضه، وذلك حسب العلاقة المقترنة بالباعث المعلّل، إلا أن نشاط المجتمع المشترك لا يتكون في بساطة من مجرد مجموع النشاطات الفردية حتى ولو كانت هذه الأخيرة من نفس الجنس، وحتى ولو كانت متحدة كلها في نفس الاتجاه، إذ يجب أيضا أن يتم تنظيمها في كنف النشاط الإجمالي حسب مخطط تنظيمي organigramme يتولى تحديد فعالية هذا النشاط، فهذا "التنظيم "للنشاطات الفردية بالذات في كنف نشاط اجتماعي مشترك هو الذي يصنع على وجه الدقة مشكلة المفهومية.[15]

فعلى المستوى العقائدي، هناك مفاهيم أساسية لا يمكن لأي تقدّم اقتصادي واجتماعي أن يتحقق دونها، فقد كان ولاشك من الضروري أن يعاد تقويم مفاهيم المسؤولية، والعدالة والاقتصاد، والنظام، وفي معانيها المألوفة والأخلاقية الأقرب للحسّ الفطري لدى الشعب، ذلك أن هذه المفاهيم فعلاّ قد قلل من شأنها التضخم والمزايدات الفوضوية[16].

ثانيا:معالم الشخصية الجزائرية وطبيعة المجتمع الجزائري:

انطلقنا في تشخيص الواقع الاجتماعي الجزائري من الفكر الاستشرافي لمالك بن نبي لأنه الوحيد الذي درس علل المجتمع الإسلامي عموما والجزائري خصوصا بصورة موضوعية ودقيقة، فنظرته للأمور نظرة كلية وليست جزئية، فالحضارة هي الإشكال والهدف، والثقافة هي الأداة العملية التي من خلالها نقوم بالإقلاع الحضاري، ومشكلة المفهومية هي التشخيص للحالة النفسية والاجتماعية لهذا المجتمع، ويمكن من باب الإيجاز ذكر القيم الأساسية التي يتحرك في سياقها المجتمع الجزائري وهي :[17]

- ✓ الارتباط بالمعتقد: عندما تكون تلك القيم معطلة في تعبير مالك بن نبي، فإن الإنسان المتلقي في هذه الحال لا يجهد نفسه دائما مثلا في فهم تلك الظواهر فهو يعتقد دوما أنها مكتوبة.
- ✓ النزعة الثورية التاريخية المعادية للخارج: عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي نتيجة الغزوات والحملات التي تعرض لها المجتمع الجزائري قد ولد الريبة والتحفظ من الخارج، فلا يزال المجتمع الجزائري محليا وليس له الحضور على المستويين الإقليمي والدولي.
- ✓ سيادة الثقافة الشعبية: أي ثقافة الفئات الكادحة إن صح التعبير، أدى ذلك إلى تفقير الحياة الثقافية والاجتماعية واللجوء إلى قيم البقاء للأقوى و"العنف اللساني والسلوكي "في العلاقات الاجتماعية .
- ✓ تغليب العاطفة على العقل.

- ✓ النظرة الجزئية للزمن: فالزمن في المخيال الاجتماعي الجزائري مرتبط أكثر بالأحداث، فمعظم الأزمنة التي يشير إليها المتلقي غابرة مثل زمن الأجداد، زمن المجاعة، زمن الرسل، زمن العشرية السوداء، فهو يعيش الحاضر بالإشارة إلى الماضي.
- ✓ حرمة المؤسسة العائلية: هذه الأخيرة مؤسسة مقدسة في المخيال الاجتماعي فقد يتساهل في أكثر من موضوع "عام " بما في ذلك الممتلكات العامة، لكنه يتشدد إلى غاية العصبية في موضوع حرمة المؤسسة العائلية .
- ✓ غياب المجال العام: يرتبط بالموضوع السابق، الحرص على المؤسسة العائلية بغياب الحياة الاجتماعية في المحيط العام.
- ✓ التنوع المخيالى الإقصائي: فرغم القيم والخبرة التاريخية المشتركة، ماتزال عقلية أفراد المجتمع الجزائري متأثرة بالنزعة المحلية، فالباحث الذي ينتقل من منطقة جغرافية إلى أخرى قد يشعر أنه في عوالم مختلفة وكل مبحوث يتحدث بمعزل عن الآخر، فالنزعة القبلية أو المحلية ما تزال حاضرة حتى في الانتخابات .
- ✓ الشخصية الانفعالية.
- ✓ النزعة الجماعية: يحكم العلاقات الاجتماعية في المجتمع الجزائري التفكير أو المنطق الجماعي، فلا يتوقع من الفرد الإنفراد بنفسه في إنجازاته وأمنياته، وإنما تسخير تلك الإسهامات في خدمة أسرته أو قبيلته.
- ✓ غياب الخصوصية الفردية: ويعني ذلك أن المجتمع لا يشجع التفوق الفردي الذي ينظر إليه بعين الريبة والحسد والاستهزاء بالقدرات.
- ✓ تمكن العقلية المادية في العلاقات الاجتماعية: ففي الآونة الأخيرة اتجه المجتمع الجزائري ومع التطور الاقتصادي وإبعاد القيمة التدريجي عن الحياة بشكل عام إلى تغليب النزعة المادية في الحياة.
- ✓ التمرد تجاه السلطة المركزية ".
- ✓ النظرة الدونية لموضوع المرأة: يغلب على المجتمع الجزائري الطابع الرجولي وينظر للمرأة أنها بالأساس خادمة ولا يتعين أن تناقش الرجل في المجالات الخارجية، فعقلية الرجل الجزائري للمرأة لم تتغير إذ يظل محكوما بالنظرة الدونية وإسناده إلى التقاليد وأحيانا الدين في تبرير هذا الموقف.
- ✓ التعايش "المتناقض " مع القيم المعطلة: **العمل مثلا** يتصف المجتمع الجزائري بأن أقواله لا تنطبق بالضرورة على أفعاله، فهو جزء من الظاهرة الصوتية التي تتسم بها المجتمعات الأخرى المحيطة، فقد يتحدث عن قيم تبدو راقية وقد يكثر من الاستدلال ولكن لا ترى أثر ذلك في السلوك والفعل الاجتماعي، بمعنى غياب الثقافة العملية في مجتمعنا.

كل هذه السمات في معالم الشخصية الجزائرية ترجع بدرجة كبيرة إلى أساليب التنشئة الاجتماعية،"إذ أن استخدام الاتصال العمودي داخل الأسرة الجزائرية أدى إلى ظهور العديد من المشكلات النفسية والسلوكية، حيث يعجز الأطفال عن التعبير عن أفكارهم وشعورهم، وهذا ما أكدته بعض الأبحاث التي قام بها مجموعة من الأساتذة المتخصصين في علم النفس حول استعمال العنف داخل الأسرة الجزائرية، وهذا ما وضحه رابح درويش مختص في علم الاجتماع بجامعة البليدة أيضا، إذ يقر بأن عجز الأطفال عن التعبير عن أنفسهم سببه ضعف التسلط داخل الأسرة واستعمال العنف، والاعتماد على الأوامر من طرف الوالدين بدل الحوار، وضعف القدرة على الإصغاء للآخرين، أما ضعف الاتصال فيرجع إلى احتكار الأب للسلطة وعدم قدرته على توجيه الاتصال بين أعضاء الأسرة بصورة جيدة .[18]

فالتسلط يؤدي إلى حالة من ضعف الثقة بالنفس وفقدان القدرة على ممارسة الأدوار الإيجابية وميل كبير إلى الاستكانة لكل أشكال السلطة من فقدان المبادرة الذاتية والعمل التلقائي .[19]

وعموما فان المجتمع الجزائري يعاني من إشكالية الثقافة في كونها لا تزال غامضة من جهة، ومن جهة أخرى بعيدة عن الواقع الجزائري، فنحن بحاجة إلى الدستور العملي فيها لكي نستطيع مواجهة التحديات، ورغم ذلك يبقى المجتمع الجزائري محتفظ في إطاره العام بعروبته وإسلاميته من جهة وبعاداته وتقاليده وأنماط الحكم والتسيير من جهة أخرى.

ثالثا :الأسس والمعايير النفسية والاجتماعية التي بنيت عليها نظريات الإعلام والاتصال الغربية:

من الواضح أن هذه النظريات انطلقت من إطار مرجعي مغاير للإطار المرجعي الإسلامي، فهي تعتمد على مبادئ علم النفس القائم على **مبدأ مثير واستجابة**، وعلى مبادئ علم الاجتماع التي ترجع أصولها الأولى إلى النظرية الدروينية نسبة إلى داروين ومبدأ الارتقاء والنشوء الذي يتميز بالإلحاد والوضعية، بالإضافة إلى أن هذه النظريات تستخدم مصطلحات دخيلة عن مجتمعنا وبعيدة كل البعد عنه، وسوف نتطرق إلى نظريات الإعلام والاتصال بإيجاز.

1. نظريات الإعلام والاتصال الغربية:

في بدايات القرن العشرين قامت الحرب العالمية الأولى في دول أوروبا وخاضت الولايات المتحدة الأمريكية أيضا غمارها، وإذا كانت الحروب فيما مضى تجري بين قوات عسكرية بعيدا عن السكان المدنيين والمجتمعات فإن جيوش هذه الحرب كانت مدعومة ومرتبطة بالمؤسسات الصناعية الكبرى، وبالتالي فإن القدرات الإنتاجية للأمم المتحاربة كانت تشكل العامل الأساس في حسم الصراع، من هذا المنطلق نشأت ضرورة زج جميع طاقات الأمة وثرواتها وإمكاناتها في المعركة.

غير أن عملية رص الصفوف حول أهداف الحرب ومراميها واجهت مشكلة تشظي تلك المجتمعات في أعقاب الثورات الصناعية، حيث أدى تقسيم العمل والتخصصية إلى تبديلات

بنوية جذرية تجلت في لاتجانسية المجتمع وفرديته وعزلة أفراده وانعزاليتهم، وانهماكهم في علاقات عقدية وغير شخصانية خالية من أواصر المساندة المشاعرية والوجدانية ومن روابط المجتمع التقليدي والتزاماته.

لهذا كله كان لابد من إعادة اللحمة إلى تلك المجتمعات لكي تحظى جيوشها بدعم مادي ومعنوي وعاطفي من شأنه إن يدفعها بقوة وعزيمة نحو خوض المعارك وتحقيق الانتصار النهائي على العدو، وبما أن الدعاية هي الوسيلة الأفضل لإعادة انبعاث مجتمع "Gemeinschaft" على حد تعبير تونيز، فإن وسائل الإعلام الجماهيري المتوافرة آنذاك شكلت الأداة الأكثر ملاءمة لتنفيذ هذه السياسة، وقد قامت هذه الوسائل بحملات دعائية على نطاق واسع لم يشهد الإعلام مثيلا لها في تاريخ الإنسانية، مستنهضة المشاعر الوطنية والقومية ومبرزة فضائع وجرائم العدو بصورة مبالغ بها أو حتى مختلفة، غير أن الجمهور كان يستهلك بشغف هذه المواد الإعلامية ولا يشك البتة في صحتها ومصداقيتها، والواقع أن الجمهور الإعلامي الذي لم يكن معتادا على هذا الضرب من الإعلام الكثيف والمستمر كان منبهرا ومتفاعلا إلى حد كبير مع هذه المضامين[20].

إن هذه الرؤية للجمهور وأشكال التأثير التي تخلفها الوسيلة الإعلامية عليه شكلت أولى نظريات الإعلام التي تقر بالتأثير المطلق للإعلام على الجمهور، إلا أن هذه الرؤية تطورت فيما بعد فتوالت نظريات الإعلام التي فسرت العلاقة بين الجمهور والوسيلة انطلاقا من نتائج البحوث الاجتماعية والنفسية التي تزامنت والبحوث الإعلامية، فظهرت نظريات التأثير الانتقائي معتمدة على كل من الفروق الفردية والفئات الاجتماعية والاستخدامات والإشباعات كمداخل للانتقائية، كما ظهرت نظريات التأثير القوي التي تلخصت أساسا في أفكارماكلوهان المتعلقة بأهمية الوسيلة على الرسالة، وليرنر حول التحديث واجتياز المجتمع التقليدي، ونيومان ونتائج دراستها حول ما يسمى بدوامة الصمت، إلا أن جملة من الباحثين قلّلوا من حماس هؤلاء وأقروا باعتدالية الأثر الإعلامي، فيما ظهرت نظريات أخرى تربط بين العمليات المعرفية وتلازمية التعرض للوسيلة الإعلامية، وبتفشي العنف ربط علماء الاتصال بين هذه الظاهرة ووسائل الإعلام، وفضلا عن نظريات التأثير فسرت بعض النظريات عمليات بناء الواقع والاتصال على شاكلة التفاعلية الرمزية، النسبية الثقافية والتوقعات الاجتماعية.

وبهذا يلاحظ التنوع الكبير والزخم المعرفي المتعلق بالإعلام وتفسير ظاهرة الاتصال، فلا تنفك نظرية بالظهور إلا وتظهر نظريات تناقضها أو تكملها أو تشرحها.

2-بعض الأسس والمعايير الاجتماعية والنفسية التي بنيت عليها هذه النظريات:

✓ الجديربالذكرأن هذه النظريات خاضعة للإطار المرجعي الغربي وترتبط بالسياق السياسي والاقتصادي لهذه الدول والثقافة الغربية، وتحمل رسالة الدعاية والرسالة الإعلامية فيما أصبح

يعرف بتقنيات الدعاية، والتي تحمل في طياتها الجانب الاستهلاكي الموجه للدول النامية ومن بينها الجزائر طبعا.

- ✓ بنيت النظريات الإعلامية على فكرة الفردانية وانقسام المجتمع وتشتت العائلة وغياب سلطة الوالدين.
- ✓ بنيت النظريات الإعلامية على فكرة العزلة النفسية للأفراد في إطار المجتمع القائم على فكرة العقد الاجتماعي أو ما يسمى الجيزلشافت حسب تعبير تونيز، مما جعل هذا الفرد يعوض الأمان الذي كان يشعر به في إطار حب وعطف الآخرين إلى اللجوء لوسائل الإعلام.
- ✓ صيغت هذه النظريات بناءا على مفاهيم متعددة على شاكلة: الغريزة– الرغبة– الإشباع– الاستثارة– العنف..إلخ، وهي كلها مفاهيم مرتبطة بالنزعة الغربية الخالية من الاعتدال والسيطرة على النفس في إطار المبادئ الإنسانية العليا والروح الدينية.
- ✓ إن هذه النظريات تحمل مفاهيم متنوعة في السياق اللغوي والمفاهيمي يحمل في طياته نظرية المؤامرة وتغليط الرأى العام بالنسبة للمضمون الإعلامي المزيف .
- ✓ إن الافتراضات المنهجية الموجودة في هذه النظريات تخضع لنسبية الزمان والمكان.
- ✓ هذه النظريات صيغت بطريقة تخدم المجتمع الغربي وسياقه الثقافي والحضاري، وبالتالي لا تخدم المجتمع الجزائري بل تضره.

رابعا:مدى فعالية نظريات الإعلام الغربية في الدراسات الجزائرية:

كما ذكرنا سابقا فإن هذه النظريات الغربية غير صالحة في الدراسات الجزائرية فهي تضر أكثر ما تنفع، لأن المجتمعين الغربي والإسلامي مختلفين من حيث المبدأ، ونقصد به الإطار المرجعي وكذلك الثقافة وسياق المفاهيم الذي هو ضروري في كل دراسة علمية تتحرى الصدق الأمبريقي، لأن الدراسات الميدانية ترتبط أشد الارتباط بالمفاهيم الإجرائية الخاضعة للمجال المكاني والزمني للمجتمع المراد تحليل آلياته ودراسته عموما.

وتعتبر نظرية الحتمية القيمية في الإعلام ومقياس (ع .س.ن)للإعلام والقيم في حقل الإعلام والاتصال صالحة للدراسات التطبيقية في المجتمع الجزائري بافتراضاتها ومفاهيمها " المستقلة "المتميزة عن غيرها، وتشمل مصادر منهجية الحتمية القيمية المعاني والدلالات المعرفية المرتبطة بتفاسير القرآن الكريم والسنة النبوية وإرث العلماء المسلمين الأوائل من أمثال الغزالي (أبو حامد) وابن خلدون وابن القيم والورثيلاني ..الخ، والمحدثين مثل مالك بن نبي والنورسي ..الخ، والأدوات المعرفية البحثية الحديثة الدقيقة التي يمكن توظيفها بوعي ولأغراض أخرى، ولمنهجية الحتمية القيمية رؤية نظرية وفرضيات ومفاهيم محددة ومترابطة .[21]ومن ثمة فإن هذه النظرية هي خلاصة بحث وجهد دقيق نابع من طبيعة المجتمع الجزائري والإطار القيمي الإسلامي، وهي نتيجة تراكم معرفي مستمر مصاغة في إطار علمي حديث.

ولكي لا يتم الخلط بين المنهجية والنظرية لابد من التمييز بينهما بالرغم من أن المنهجية شديدة الارتباط بالنظرية،أما الفصل بين النظرية والمنهجية فعملية إجرائية فحسب، وقد أدى الفصل بين مواد (أو مساقات)النظرية والمنهجية في المحيط الأكاديمي الإعلامي إلى إحداث(انطباع)أن المنهجية (مستقلة)أو(منفصلة) عن النظرية، فيما تم تقليص المنهجية إلى بعض الأدوات الجزئية مثل استبيان دراسة الجمهور أو استبيان تحليل المضمون،وقد وضع الدكتور عبد الرحمان عزي أسس منهجية خاصة بنظرية الحتمية القيمية في الإعلام وتشمل الافتراضات والمفاهيم بشكل بحثية ثم تطوير مقياس دراسة القيم (ع .س .ن)، بالتعاون مع الدكتور السعيد بومعيزة، والدكتور نصير بوعلي، وذلك عملا بمبدأ مقياس دراسة التوجهات المستخدمة في المجالات المعرفية [22].

وتسهم منهجية الحتمية القيمية في إضاءة الخلل المعرفي الموجود في توظيف المناهج والأساليب دون وعي بافتراضاتها ودون انخراط في الجو القيمي والثقافي والاجتماعي والحضاري في المنطقة الإسلامية والعربية، وتحاول إزالة السطحية عن البحوث والدراسات الامبريقية في حقل الإعلام بالاهتمام والاعتماد على القيم النابعة من الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية .

خاتمة :

حاولنا من خلال هذه الدراسة الربط بين النظريات الإعلامية وسياقات استخداماتها بين البيئة الغربية والتطبيقات الجزائرية، وذلك من خلال تحليل واقع المجتمع الجزائري وأسسه النفسية والاجتماعية، ثم عرض النظريات الإعلامية وأهم القيم التي قامت عليها، وقد توصلنا إلى أن النظريات الإعلامية الغربية لا تصلح كمنطلقات نظرية للدراسات الجزائرية في إطار المنهجية المحكمة، أو على الأقل صعوبة تطبيقها، على عكس هذا حاول عزي عبد الرحمان أن يتجاوز التطبيقات الصورية للنظريات الغربية من خلال صياغته لنظرية الحتمية القيمية، المنطلقة من مفاهيم الزمان والمكان والمتعلقين بالواقع الجزائري والعربي الإسلامي في انتظار تطويرهما وتوسيع تطبيقاتهما.

- **الهوامش و المراجع :**

1. القرآن الكريم ، سورة الرعد ،الآية 11.
2. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع.. شبكة العلاقات الاجتماعية، ج1، (ترجمة عبد الصبور شاهين)،دار الفكر، دمشق ،1985 ،ص 107.
3. مالك بن نبي، شروط النهضة، (ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين)، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة (الجزائر)، 2013، ص 61.
4. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع،مرجع سبق ذكره، ص 52.
5. مالك بن نبي، مجالس دمشق، دار الفكر للتوزيع والنشر، دمشق،ط 2، 2006 ، ص 94 .

6. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، (ترجمة عبد الصبور شاهين)، دار الفكر، دمشق، 2009، ص ص 24-25.
7. يوسف محمد حسين، موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 214.
8. الطيب برغوث ، آفاق في الوعي السنني ..محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 16.
9. مالك بن نبي، مجالس دمشق، مرجع سبق ذكره، ص116.
10. الطيب برغوث، مرجع سبق ذكره، ص 53.
11. مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سبق ذكره، ص 80.
12. عمر النقيب، مقومات بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، الشركة الجزائرية اللبنانية،الجزائر، 2009، ص 53.
13. مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سبق ذكره، ص 81.
14. مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، 1991، ص 94.
15. نفس المرجع، ص 98.
16. مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر للتوزيع والنشر،دمشق،ط 5، 1995،ص 18.
17. عبد الرحمان عزي، منهجية الحتمية القيمية في الإعلام ومقياس(ع .س .ن)للإعلام والقيم، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2013، ص ص 68-74.
18. عامر مصباح، التنشئة الاجتماعية والسلوك الانحرافي لتلميذ المدرسة الثانوية،دار الأمة، الجزائر، 2003، ص 53 .
19. كافية رمضان، أنماط التنشئة الأسرية في المجتمع العربي، حوليات كلية التربية في جامعة قطر، العدد السابع ، 1990، ص 68.
20. فريال مهنا، علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2002، ص ص 138-139.
21. عبد الرحمان عزي، مرجع سبق ذكره، ص 13.
22. نفس المرجع، ص ص 8 -9.